فى التربية

التصاهر بين الشعوب

للاستاذ حامد عبد القادر

أستاذ التربية وعلم النفس بكلية أصول الدين

بعض علماء الاجتماع لا يقول بوجوب اختيار الزوج فقط، بل يذهب أبعد من ذلك ويقول بوجوب التصاهر بين الشعوب المختلفة بدون تعصب للوطنية، ولم يقولوا بذلك إلا بعد التجارب المختلفة التى عملوها على النباتات والحيوانات، فظهر لهم أن الاختيار الصناعى يؤدى إلى تحسين النباتات والأزهار والفواكه، فلم يروا بأساً من تطبيق النتائج التى وصلوا إليها على النوع الانسانى، وليس هناك من مجال يتسع للقيام بتلك التجارب أفسح من أمريكا حيث توجد عناصر مختلفة تحدث بينها مصاهرة. وقد قال لوثر بربانك العالم الأمريكى الاجتماعى فى كتابه المسمى « تربية النبات الانسانى »: « إن مقدرة الرجال يمكن تنميتها وإدخال التحسين عليها بالطرق التى اتبعت فى تحسين النباتات والحيوانات » .

وليست هذه الفكرة وليدة اليوم، فان أفلاطون لاحظ أن كرام الخيل وأعلى فصائل الكلاب إذا اتبعت فى تربيتها طريقة الاختيار الصناعى تتحسن أنواعها وتنجب نسلا أقوى وأجود نوعا من نسلها لو لم يحصل ذلك الاختيار ، وقد وضع فى كتابه الخالد المسمى (الجمهورية) قوانين يتوصل بها إلى ترقية النوع الانسانى، وهذه القوانين تقتضى التدخل فى الزواج وضبط شؤونه .

ولكن هذه التجارب التى أجريت على الحيوانات والنباتات فى الاسطبلات وفى الحقول لا يمكن إجراؤها على أفراد النوع الانسانى بنجاح تام، وذلك لوجود صعوبات كثيرة أهمها: —

١ — إن حياة النبات والحيوان بسيطة ساذجة عمادها الاعمال العكسية والفرزية، فمن السهل جدا التحكم فيها ، ومن الممكن تكييفها بالطرق التى يرى المجربون سدادها، أما حياة الانسان فمعقدة، عمادها الأعمال الارادية، وميول الانسان ورغباته لا تكاد تحصى، فمن المتعذر إن لم يكن من المستحيل، أن يحصل المربون على رجال ونساء يستسلمون لاجراء التجارب عليهم وهم ساكنون لا يبدون حراكا ، والمجربون إن نجحوا فى إيجاد عدد ما ، فانهم لن ينجحوا فى التحكم فى جميع أفراد النوع الانسانى كما يريدون .

٢ — إن المربين للنبات والحيوان لكى يتمكنوا من تحسين انواعها وإبقاء الصالح منها فقط، فلا بد لهم أن يقضوا على حجر الصالح كيلا يكون حجر عثرة فى سبيل تحسين غيره ، ولكى يتسنى للمربين التفرغ للافراد الصالحة والعناية بتحسينها.

ولا يمكن أن يكون الأمر كذلك بالنسبة للانسان، إذ أن المصلحين الاجتماعيين لم يجرؤوا بعد على أن يقولوا بوجوب القضاء على غير الصالح من أفراد النوع الانسانى، وإننا إذا كنا نسمع من يقول بوجوب عمل ذلك مساعدة للطبيعة، ومراعاة لقانون النشوء الذى يقضى بفناء غير الصالح وبقاء الأصلح فى تنازع البقاء، إلا أن هذه الفكرة لم تخرج حتى الآن إلى حيز الفعل .

بل إننا نجد الجمعيات الانسانية تؤلف لحماية الضعفاء وإصلاح شأنهم والعناية بغير الصالح من أفراد النوع الانسانى .

٣ — إن شعور الانسان يأبى عليه أن يعامل معاملة الحيوان الأعجم، وأن يوضع موضع النبات الذى تنقصه الحياة الكاملة ويعوزه الحس والشعور التام؛ وكيف يرضى الانسان بالقضاء على حريته وتحديد حركاته وسكناته ؟ على أن شعوره فى انه تحت التجربة، وأنها تجرى عليه فى وقت معين مما يكفى لفساد التجربة، وربما يؤدى إلى عكس المطلوب.

٤ — إن القوانين الاخلاقية والاجتماعية تختلف باختلاف الزمان والمكان، فما يكون مباحا الآن قد لا يكون كذلك فى عصر آخر، وقد لا يتفق الناس فى كل زمان ومكان على المبادىء التى تتبع فى اختيار الزوجين؛ وما يعتقده الجيل الحاضر مثلا أعلى للانسان الكامل قد لا يروق فى نظر الأجيال الآتية .

ولكن على الرغم من هذه الاعتراضات، نرى أنه من الممكن زوال جميع هذه الصعوبات إذا ترك الاختيار للفرد يتصرف فيه بعقله وضميره لمصلحة نسله ولصالح النوع الانسانى .

فلا يصح للعاقل أن يعير هذه الصعوبات التفاتا جديا، فيتراخى فى امر اختيار زوجه على حسب ماذكرنا .

والخلاصة أن جمهور العلماء لا يرون مانعا مطلقا من أن يجروا على الانسان مثل تلك التجارب التى أجروها على النبات والحيوان، متبعين فى ذلك طرقا تلائم منزلة الانسان وتناسب مركزه فى الحياة، فانه مهما علت منزلته ومهما بلغ فضله فهو لا يزال يعتبر حلقة من الخلقات الحيوانية، ولذا نراه يتأثر بقوانين الوراثة مثلها .

على أن علو منزلته وتقدمه على غيره من الحيوانات يمكن أن يتخذ حجة عليه لا له، إذ انها تحتم عليه أن ينتفع بتلك القوانين بقدر ما يمكنه، وأن يتعلم دروسا مفيدة من الطبيعة التى أراد خالقها أن تخضع لقوانين متحدة .

فالانسان الذى هو الحيوان الوحيد الذى يكافح الطبيعة ويواصل الخطوات فى سبيل التغلب

عليها بوسائل مدبرة، ويتسلط على غيره من الكائنات فيستخدمها لمصلحته ويصلح من شأنها لمنفعته، يجدر به أن يتدخل فى شؤون نفسه لاصلاح نسله وتقويم نوعه، وإن اكبر وسيلة لذلك هى (التدخل فى الزواج وضبط شؤونه) كما يقول افلاطون .

٣ ـ الوراثة والقانون :(١)

ويرى المفكرون أنه من الواجب أن ينظم القانون الأمور الزوجية فيحرم الزواج على من ليسوا أهلا له، وذلك بفحص من يريد الزواج فحصا طبيا، وإعطاء الصالح شهادة تخول له الزوج.

وهناك فريق يعارض هذه الفكرة، ويستدل على بطلانها بأنها تؤدى حتما إلى شلل فى حركة الزواج، وإلى قلة النسل وانتشار الدعارة ، ولكن هذه المضار إذا وقعت بالفعل ليست بشىء بالنسبة لما ينجم عن تنظيم الأمور الزوجية من الفوائد الجليلة .

أما مشكلة الضعفاء جسما أو عقلا، الذين يحرمون من الزواج، فسنعرض لها لمناسبة أخرى .

٤ـ تحريض القادرين على الزواج :

لاشك فى أن الزواج واجب اجتماعى يقصد منه بقاء النوع الانسانى، بل انه ضرورة اجتماعية تدعو إليه الطبيعة البشرية ويميل اليه الانسان بفطرته ، ولكنه يكون أوجب على من اكتملت فيهم شروط الزواج ، أى على الخالين من صفات الضعف الوراثية ، السليمين من بعض العيوب: كاضطراب الأعصاب الناشىء عن إدمان السكر أو عن خلل فى المجموعة العصبية، ومثل مظاهر العته والجنون وضعف العقل .

ولا ينبغى أن يكون الزوجان صغيرين فى السن لم يبلغا حد النضوج الجسمى والعقلى، ولا كبيرين أدركهما الوهن والضعف، وفاتهما عهد الحيوية الجسمية والعقلية .

هذا وقد لاحظ علماء الاجتماع مع الأسف الشديد حقائق تدعو الى القلق على مستقبل النوع الانسانى، وحصلوا على معلومات خطيرة، وشاهدوا مشاهدات محسوسة لو تكررت وسارت فى طريقها لأدت إلى « انتحار النوع » .

وأهم تلك الحقائق أن عدد المواليد بين الأسرات الضعيفة غير الصالحة فى كثير من الممالك الأوربية، أكثر بكثير من نسبة عدد المواليد بين الأسرات القوية الصالحة للانتاج .

وهذه حقيقة مشاهدة فى مجتمعنا المصرى أيضاً، فنحن نرى أن كثيرا من الأقوياء القادرين يحجمون عن الزواج، أو لا يرغبون فى النسل ، أو يصابون بالعقم ، هذا مع كون الضعفاء الفقراء يتناسلون ويكثر عدد نسلهم، فنرى بذلك أن قانون (دارون) قد انعكس، فبدلا من أن « تنازع البقاء » يؤدى إلى « بقاء الاصلح » وفناء غيره ، نرى أن النظام الاجتماعى الحاضر مؤسس على قوانين صناعية تؤدى إلى بقاء العناصر الفاسدة وكثرة عددها ، بينما العناصر الصالحة تلتهمها

(١) راجع ج ١٠ و ١١ من هذه المجلة.

الحروب أو تذهب ضحيـة العمل والجهاد الفكرى، بالاضافة إلى أنها دائما عرضة لتعدى العناصر الفاسدة عليها .

هذه ظاهرة لانزاع فيها، وإذا استمرت قرونا فانها تؤدى إلى القضاء على العناصر الصـالحة، ولـكى تتلافى هذا الخطر، نوجه إلى تلك العناصر الصالحة موعظة حسنة ونصيحة قديمة قويمة نصبح بها قادة الديانات السامية أممهم وأتباعهم وهى : «تناكحوا تـكثروا» أو « زيدوا عددا واملئوا الأرض » .

وربما تقول هذه نصيحة مقبولة، ومن المعقول أن يعمل بها الصالحون للزواج القادرون عليه، ولـكن ماذا نفعل بغيرهم؟

وللاجابة عن هذا السؤال نقول: إن هذه مشكلة عويصة من المشاكل الاجتماعية التى قتلها علمـاء الاجتماع بحثا وذهبوا فيها مذاهب شتى، فمنهم من يقول بتحسين أحوال هؤلاء بقدر مايمكن، بأن تخصص لهم خطط خاصة يسكنونها، ثم تحسن بيئاتهم ويعالجوا معالجة طبية واجتماعية وهكذا .

ومنهم من يقول بمنعهم من الزواج مطلقا، لاسيما المصابين منهم بأمراض تناسلية أو عقلية مزمنة ، ولـكيلا يكون هناك مجال للشك فى أمرهم ، يرى هذا الفريق أنه من الواجب تعقيمهم وجعلهم غير قادرين على الانتاج .

ومن العلماء من يقول بوجوب بترهم ليتخلص جسم النوع الانسانى منهم، فهم بمثابة الجراثيم التى هى مصدر الأوبئة، والتى يجب التخلص منها بكل الوسائل الممكنة .

وجمهور العلماء لايرون هذا الرأى الأخير لمخالفته للانسانية، ويفضلون الرأى الأول لأن تحسين حال الضعفاء يؤدى بالضرورة إلى تحسين حال الأقوياء .

وهناك أمور يفترضونها لتحسين أحوال الضعفاء أهمها : —

١ـ تحسين البيئة: ببناء المنازل الصحية وإنشاء الحدائق، وتسهيل وسائل التموين، والحصول على المياه والاضاءة الـكافية ، والعناية بشؤون التربية وإصلاح طرقها .

٢ـ أن يتزوج الشخص الذى يرى فى نفسه ضعفا ما فى ناحية يرغب فيها، بامرأة تكون قوية فى تلك الناحية، وإن كانت ضعيفة فى نواح أخرى، فالرجل الذى يأنس من نفسه اضطرابا فى الأعصاب مثلا يجدر به أن يقترن بسيدة تـكون أعصابها قوية، ذلك لأن قوة الأم تذهب بضعف الأب، فيأتى النسل بريئاً من هذا العيب. أما الشخصان المصابان بعاهات متماثلة فننصح لهما بعدم الاقتران كيلا ينجبا أولادا مصابين بهذه العاهات ، ولا يمكن للتربية علاجها اللهم إلا فى أحوال نادرة حيث يمكن العلاج بعمليات جراحية .

٣ـ المهاجرة من بيئة إلى أخرى: لأن الانسان لا يمكنه أن يسبر غور قواه النفسية، ولا يمكنه

أن يتعرف أسرار مداركه، فمن الممكن أن ما خفى من هذه القوى واستتر بين تلك المدارك فى بيئة من البيئات، يظهر فى أخرى أشد ملاءمة وأكثر مناسبة، وكم من رجال ساء حظهم وبلغ بهم الضعف مبلغه فى مكان، فلما تركوه وضربوا فى الأرض وانتقلوا إلى مكان آخر تحسنت أحوالهم، وتجددت قواهم، ونالوا شهرة واسعة، بعد أن كانوا خاملين فى موطنهم الأصلى، وهذا بالطبع، راجع إلى وجود مؤثرات مشجعة، وفرص جذابة فى البيئة الجديدة.

ومن هنا تظهر الفائدة من حث الناس على السفر والتنقل من مكان إلى آخر إذا ضاقت بهم سبل العيش فى أوطانهم أو أبصروا فى أنفسهم خمودا أو فى قواهم همودا.

ففى الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن رام العلى متقلب

***

وبعد، فلاحاجة بنا الآن للتعمق فى هذا البحث والاطناب فى الكلام على هذه المشكلة الاجتماعية فاننا بحمد الله وبفضل البقية الباقية من النفوذ الدينى لم نصب بكثير من تلك الأمراض الاجتماعية الكبرى التى تشكو منها الامم الأوروبية، وإن أشد ما نخشى حصوله فى المستقبل أن نصبح عبيداً للحضارة الزائفة ونقع فى حبائلها ونصير هدفا لتلك السهام السامة التى يصوبها الأجانب نحونا ونحو أبنائنا، وهم آمنون على انفسهم ما داموا يحتمون بنظام الامتيازات الوخيم العاقبة.

وإننا إن ننس ما فى هذا المجتمع الذى نعيش فيه من أغلاط وشرور، فاننا لن ننسى مما جلبته علينا الحضارة الأوربية أمرين هما: الدعارة المصرح بها، وانتشار المواد السامة المسماة بالمخدرات إلى هذا الحد المريع. واننا إذا لم نتلاف هذه الأخطار ونعجل بالدواء قبل استفحال الداء، ونعمل بالمثل القائل « منع وقوع الداء خير من علاجه » فاننا ولا محالة واقعون فيما وقع فيه غيرنا، فيكثر بيننا البله والمعتوهون وضعاف العقول والمصابون بالسل والصرع والأمراض السرية التناسلية، ولا يلبث هؤلاء أن يتناسلوا وينموا وينقلوا أمراضهم إلى أضعاف عددهم بالوراثة أو بالعدوى الاجتماعية، فيملئوا الأرض أمراضا بعد ماقربت أن تملأ ضلالا وفساداً.

فعلى كل من لديه حمية قومية وغيرة وطنية، أن يكافح هذه السموم ويصارع هذه الجراثيم بكل مالديه من قوة ونفوذ وحزم، فأنى أعتقد تمام الاعتقاد انه كما أن الناس يفسدون الناس كذلك يمكنهم أن يصلحوا انفسهم، ويصلحوا غيرهم متى وجدت عندهم العزيمة الصادقة واتبعوا الطرق الموصلة إلى الغرض المطلوب.

حامد عبد القادر